ركن المعتزلة :

فكرة الله عند المعتزلة

للدكتور ألبير نصري نادر

نزل القرآن الكريم يتحدث عن الله تعالى خالقاً للكون مدبراً له . والتوراة والإنجيل يتحدثان عن الله وعن صفاته . والكون بأثره وما فيه من نظام يدل على وجود كائن أول متصل ، والمعتزلة لا تشك أبداً في وجوده تعالى ولكن جل همها كان البحث في ماهيته وعلاقته بهذا العالم المخلوق .

نفي صفات الله :

تفخر المعتزلة بأنهم أهل توحيد . ولكن كل مؤمن موحد أيضاً — ولما كان التوحيد اعترافاً بوجود إله واحد نجد المعتزلة على حذر كبير في التحدث عن صفاته تعالى خوفاً من أن يؤدي الكلام في هذا الموضوع إلى شرك يقضي على كل توحيد . لذلك نفت الصفات عن الله .

والأصل الأول الذي كان يقول به واصل بن عطاء رأس المعتزلة (المتوفى سنة ١٣١ هـ) هو نفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والإرادة والحياة [١] . لأن واصل أراد أن يرد فكرة الأقانيم [٢] عند النصارى ، وكان يرى فيها ثلاثة آلهة ، إذ أن الثلاثة قديمة . فخشي أن تؤدي فكرة الصفات حتى الأزلية إلى شرك عند المسلمين ؛ لذلك جنح إلى التنزيه البحت وبه نفى أن يكون لله تعالى صفات غير ذاته .

كانت هذه المقالة في بدئها غير نضيجة . وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين ، لأنه من أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين .

ثم شرع أصحاب واصل في هذه المقالة بعد مطالعة كتب الفلاسفة وانتهى نظرهم فيها إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالماً قادراً ثم الحكم بأنها صفتان ذاتيتان هما اعتباران للذات القديمة [١]

والمعتزلة حجة قوية في نفي الصفات وردها إلى اعتبارات ذهنية للذات .

حجتهم :

يقول المعتزلة : لو قامت الحوادث بذات الباري لا تصف بها بعد أن لم يتصف ؛ ولو اتصف لتغير ، والتغير دليل الحدوث إذ لا بد من مغير [٢] . فإذا ما تكلمنا عن علم الله مثلاً لا يجوز أن نعتبر العلم صفة قائمة بذاته تعالى ؛ لأنه إما أن تكون هذه الصفة أزلية كالذات ، وإما أن تكون حادثة . فإذا كانت أزلية فكيف يمكنها أن تحل في الذات ؟ وإذا حلت فيها كان هناك أزليان — وإذا كانت حادثة وحلت في الذات فكانت الذات قد تغيرت من حال (حال عدم العلم) إلى حال (حال العلم) والتغير دليل حدوث ؟ فتكون الذات حادثة في صفاتها . وهذا ما لا يتفق وكماله تعالى .

تعريف المعتزلة لله :

نجد في كتاب « مقالات الإسلاميين » [٣] للأشعري تعريفاً كاملاً شاملاً لله حسب رأي المعتزلة . فيقول : « أجمعت المعتزلة على أن الله واحد » (ليس كمثله شيء [٤] وهو السميع البصير) .

وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا ذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة ولا ذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض . وليس بذي إبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء ، وليس بذي جهات ولا بذي يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ولا تجوز عليه المماسة ولا المزلة ولا الحلول في الأماكن .

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل على هامش الفصل لابن حزم جزء أول صفحة ٤٣ .

(٢) الأقانيم ثلاثة : الآب وهو الوجود ، والابن أو الكلمة وهو العلم ، والروح القدس وهو الحياة (شرح المواقف للجلبي ج ٢ ص ١٢٦)

(١) الشهرستاني : المصدر نفسه .

(٢) الشهرستاني : نهاية الأقدام ص ١١٥ من طبعة لندن وترجمة جيوم

(٣) كتاب مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تأليف الإمام أبي الحسن علي بن إسمعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ ، عني بتصحيحه هـ ريتر طبع استانبول سنة ١٩٢٩ .

(٤) سورة الشورى ٤٢ الآية ١١

ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمماسات ، ولا ذهاب في الجهات ، وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ولا تحل به الحادثات ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فتير مشبه له .

لم يزل أولاً سابقاً متقدماً للمحدثات ، موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل عالماً قادراً حياً ، ولا يزال كذلك ، لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام ولا يسمع بالأسماع .

شيء لا كالأشياء . عالم قادر حي لا كالعلماء القادرين الأحياء ، وأنه القديم وحده ولا قديم غيره ولا إله سواه ولا شريك له في ملكه ولا وزير له في سلطانه ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق . لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ولا بأصعب عليه منه . لا يجوز عليه اجتراز المنافع ولا تلحقه المضار ولا يناله السرور واللذات ولا يصل إليه الأذى والآلام . ليس بذي غاية يتناهى ولا يجوز عليه الفناء ولا يلحقه العجز والنقص . تقدس عن ملامسة النساء ، ومن اتخاذ الصاحبة والأبناء .

فها نحن بصدد تعريف جله نفى كل صفة عن الله ؛ ونتيجة لهذا التعريف لا يمكننا أن نكون من الله فكرة حقيقية وواقعية أي موضوعية ، ولا يمكننا أن ندرك فكرة اللاألوهية حتى ولا بالمشابهة مع المخلوقات ، لأن فكرة اللاألوهية متعالية من كل مخلوق مجردة من كل صفة يتصف بها المخلوق — وهذا ما جعل للمعتزلة تقول بأن الخلق لا يستمد ماهيته من الله ، لأنه لو كان الأمر كذلك لوجد تشابه في الماهية بين الله والخلق ؛ ولكن ماهية الخلق لا تشارك البتة ماهية الله التي تجهلها تمام الجهل — وتنتهي المعتزلة إلى القول بأن الله لا يمنح سوى الوجود للخلق ، وكل ما عدا الوجود فلا يوجد أي تشابه بينه وبين الله .

أن هذه النقطة في غاية الأهمية لما يترتب عليها من أقوال ونظريات تتعلق بمسألة خلق العالم وماهيته .

تحليل هذا التعريف :

إذا نظرنا إلى هذا التعريف نظرة تحليلية وجدنا أنه رد على اعتقادات مختلفة إسلامية كانت أو مسيحية أو مجوسية ؛ كما أنه رد أيضاً على نظريات فلسفية كانت منتشرة في عصر المعتزلة أي في القرنين الثاني والثالث للهجرة .

كانت الرافضة تقول وهي معتقدة أن ربها جسم ذو هيئة وصورة يتحرك ويسكن ويزول وينتقل ؛ وأنه كان غير عالم ثم علم ، وأنه يريد الشيء ثم يبدو له فيريد غيره[1] .

ومن جهة أخرى تقول المشبهة بأن الباري تعالى يشبه الخلق في شعوره وإحساسه وتفكيره وإرادته حتى أن بعضهم قال بأن له أعضاء كأعضائنا تماماً محتجين ببعض آيات مثل (يد الله فوق أيديهم)[2] . (وقالت اليهود يدُ الله مغلولة)[3] . (ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام)[4] (الرحمن على العرش استوى)[5] والمشبهة تأخذ بهذه الآيات حرفياً بدون أي تأويل .

لذلك نفت المعتزلة الجسمية عن الله كما نفت كل ما يتعلق بالجسم من حركة وسكون وصورة ولون الخ . . كما هو واضح في الجزء الأول من التعريف . وكذلك نفت عنه تعالى كل ما يتعلق بالنفس الإنسانية من شعور ومعرفة (بمعنى للشعور من درجة إلى درجة أسمى في المعرفة) وإرادة (بمعنى الاختيار) ، وقالت إنه تعالى « لا يقاس بالناس ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه » ولا نعلم شيئاً عن ماهيته سوى أنه الواحد ، فتكون للمعتزلة لا أدرية agnostiques .

وبينما يقول النصارى بثلاثة أقانيم في الله نجد المعتزلة يرفضون كل فكرة من الأسرار ويعلنون بأن الله « لا والد ولا مولود ولا شريك له في ملكه » .

ونجد أخيراً في هذا التعريف رداً على المثل الأفلاطونية[6] التي كما يقول أفلاطون قد أنشأ الله الخلق على صورتها . ولكن المعتزلة ترى في هذه المثل الأزلية شرك لله وتقول أن لا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق . ولم يخلق الخلق على مثال سبق .

(١) كتاب الانتصار للخياط المعتزلي ج ٨ ص ١٠٧
(٢) الفتح ٤٨ آية ١٠
(٣) المائدة ٥ آية ٦٤
(٤) الرحمن ٥٥ آية ٢٧
(٥) طه ٢٠ آية ٥
(٦) تهاوس لأفلاطون .

ما يترتب على هذا التعريف :

تقول المعتزلة بأن الله واحد ومتميز تمام التميز عن الخلق ، هو الأصل الوحيد الذى بمقتضاه يفرقون بين ما هو حق وما هو باطل فى التوحيد ؛ ويعتبرون أنفسهم بأنهم هم فقط « أهل توحيد » . وعلى هذه الفكرة بنى المعتزلة مسألة الخلق وهى مسألة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمبدأ نفى كل مشابهة بين ماهية الله وماهية العالم المخلوق . وبما أن هاتين الماهيتين مختلفتان ومتباينتان تماماً فى عرف المعتزلة قالوا إن الماهية المحدثة المخلوقة ليست حاصلة من الماهية القديمة ؛ لذلك قالوا بالعدم واعتبروه شيئاً وذاتاً وعيناً وحقيقة يمنحه الله الوجود ليصير كائناً[1]

مصدر هذه الفكرة :

إنا نجد فى القرآن الكريم هذه الآية (ليس كمثله شىء)[2] وكذلك (لا تدركه الأبصار) [3] ولكن كم أيضاً من الآيات التى تتحدث عن أعضاء الله وعن الشبه بينه تعالى وبين الإنسان ؟

هل تكفى آية أو آيتان حتى تبنى عليهما المعتزلة هذا التعريف النفى لله ويصبح تعالى كائناً متميزاً تمام التميز عن خلقه ؟ لا شك فى أن المعتزلة استرشدت أيضاً بمصادر أخرى .

كان واصل بن عطاء متصلاً بالنصارى . ولكنه رأى فى سر الثالوث الأقدس (وهو سر إله واحد فى ثلاثة أقانيم) شركاً لله ؛ فأخذ يرده بقوة حتى يصل إلى فكرة عن إله واحد فى غاية البساطة ومميز تماماً عن خلقه . وابتداء من أبى الهذيل العلاف أخذت المعتزلة تطالع كتب الفلاسفة اليونانيين التى ترجمت إلى السريانية والعربية فى ذلك العهد . فكانت محاورة تيماوس لأفلاطون قد ترجمت إلى العربية [4] والله فى عرف أفلاطون لا يكوّن العالم على صورته بل على صورة المثل الأزلية . فساعدت هذه الفكرة المعتزلة على القول بأن العالم المخلوق لا يشبه الله الخالق أعنى (فى لغة المعتزلة) المانع الوجود لماهيات مختلفة ومميزة عنه ؛ كما أنهم نفوا أن الله يخلق الخلق على مثال سبق .

ومن جهة أخرى يقول أرسطو إن الله ليس بالعلة الفاعلية للعالم وإنما العالم يجتهد بأن يحيى بقدر المستطاع حياة مماثلة لحياة الله ، ولكنه لا يستطيع ذلك لسبب مادته ، فيقلد الحياة الإلهية بحركة مستمرة وأزلية وهى الحركة الدائرية (انظر ارسطو كتاب الطبيعة ص ٢٦٥ ب ١) التى هى العلة الغائية للعالم — فإذاً لا توجد أى مشابهة بين الله والعالم ، والله على رأى أرسطو لم يبدع ماهية العالم ولا وجوده ؛ إنما المعتزلة مع نفيها كل مشابهة بين الله والخلق تقول إن الله منح الوجود فقط للعدم حتى صار كائناً .

وعندما أغلقت مدارس أثينا الفلسفية لجأ سمبلقيوس الفيلسوف إلى كسرى ملك الفرس وصديق الفلاسفة . وترك سمبلقيوس Simplicius عدة شروح لنظريات أرسطو وكان أغلب للمعتزلة على صلة بالفرس حتى إن بعضهم كان من أصل فارسى مثل أبو على الأسوارى .

فهذه الترجمات العربية لكتب الفلاسفة اليونانيين التى قام بها السريانيون من جهة ، والترجمات التى قام بها الفرس من جهة أخرى ، ساعدت المعتزلة على مطالعة الفكر اليونانى وقدمت لهم ما يلزمهم من براهين للدفاع عن التوحيد كما فهموه .

لكن هذا لا يعنى أن المعتزلة وجدت الأفكار التى تنافع منها وقامت بها جاهزة كاملة — أن فضلهم لكبير ، لأنهم اقتبسوا من الفكر اليونانى ما رأوه مناسباً للرد على المشبهة ودفع كل شرك مفاخرين بأنهم « حماة التوحيد » .

* * *

نفى المعتزلة لصفات الله تعالى لا يمنعهم من البحث فى بعض الصفات على زعم أنها اعتبارات ذهنية فقط وليست حقائق تتصف بها الذات الإلهية .

وهذا ما سنتطرق إليه فى مقالنا القادم إن شاء الله .

ألبير نصرى نادر
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١) الشهرستانى : نهاية الاقدام ص ١٠١ الملل والنحل على هامش الفصل لابن حزم ج ١ ص ٨٥
ابن حزم ج ٤ ص ١٥٣ — البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٩٥
الاسفرايينى : التبصير فى الدين ص ٣٧
(٢) الشورى ٤٢ آية ١١ (٣) الأنعام ٦ آية ١٠٣
(٤) ترجمة يحيى بن البطريق فى عهد المأمون وراجع الترجمة حنين ابن إسحق (١٩٤ هـ الى ٢٦٤ هـ) وطالع هذه الترجمة تجد أن المعتزلة المتقدمون مثل أبو الهذيل العلاف وإبراهيم النظام الذى عرف حنين بن إسحق فى بغداد .